

اسم المقرر ورقمه

الأخلاق الإسلامية وآداب المهنة-
سلم ٣١٧

د. عبد الله الديرشوي



نظام التعليم المطور للانتساب
كلية الآداب- قسم الدراسات الإسلامية

المحاضرة الأولى

تعريف الخُلُق، وطبيعته، ومكانته في الإسلام

أولاً- تعريف الخُلُق:

الخُلُق لغةً: بضم الخاء واللام، الطبع والسجية. أي ما جُبِل عليه الإنسان من الطَّبَع. وجمعه أخلاقٌ. وهو - أي الخُلُق - يمثل صورة الإنسان الباطنة، التي هي نفسه التي بين جنبيه وأوصافها ومعانيها المختصة بها. أو بتعبير آخر: الجانب المعنوي في شخصية الإنسان. كما أن الخُلُق يمثل صورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها. أو بتعبير آخر: الجانب المادي في شخصية الإنسان.

واصطلاحاً: حالٌ للنفس راسخةٌ تصدر عنها الأفعال من خير أو شر من غير حاجةٍ إلى فكرٍ و رَويّةٍ. وبهذا المعنى يكون وصفاً للنفس. فنقول: فلان خَلَقه عالٍ. أي أنه يتصف في نفسه بصفة تجعل الأفعال الصادرة عنه محمودة من غير تكلف. وكذلك حين نقول: فلان خلقه سيئاً. أي أنه يتصف في نفسه بصفة تجعل الأفعال الصادرة عنه مذمومة من غير تكلف. وهذا المعنى هو المراد من قول الله سبحانه في مدح نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: {وإنك لعلی خُلُقٍ عظیمٍ}.



وقد يطلق الخُلُق أحياناً على المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذا العالم وعلى أكمل وجه. وبهذا المعنى نقول: الصدق خُلُق، واحترام الكبير خُلُق، وبر الوالدين خُلُق ... وهكذا. وهذا المعنى هو المراد من قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق".



شرح التعريف وتوضيحه:

التعريف الأخير - أعني المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك- واضح لا لبس فيه، فالصدق والسخاء والرحمة والعدل وحب الخير للناس جميعها أخلاق حميدة، وفضائل مسلّمة، يسعى عقلاء الناس للتحلي بها، وتربية أبنائهم عليها. وأما التعريف الأول فهو الذي يكتنفه بعض الغموض، ويحتاج إلى توضيح، فنقول: يُقصد بـ (الحال) : الهيئة والصفة للنفس الإنسانية.

و (راسخة) : أي ثابتة في أعماق نفسه. وهو ما يعني أن هذه الأفعال تتكرر من صاحبها على نسق واحد؛ حتى تصبح عادة له. ومن ثمّ كان مَنْ ينفق المال مرة أو مرتين أو ثلاث مرات على المحتاجين لا يوصف بخلق السخاء والجود، بل لا بد من تكرره منه مراراً؛ بحيث يصبح عادة له.



و (من غير حاجةٍ إلى فكرٍ و رَوِيَّةٍ) : أي من غير من حاجةٍ إلى تأملٍ واجتهادٍ وتكوين قناعةٍ عقليةٍ للقيام به. وكذلك من غير تكلفٍ أو تصنعٍ أو مجاهدةٍ نفس، بل بسهولة ويسرٍ وبطريقةٍ تلقائيةٍ.

يقول الإمام الغزالي رحمه الله: "الْخُلُقُ وَالْخُلُقُ عبارتان مستعملتان معاً، يقال: فلانٌ حسنُ الخُلُقِ والخُلُقِ. أي: حسن الباطن والظاهر.

فيراد بالخُلُقِ الصورة الظاهرة، ويراد بالخُلُقِ الصورة الباطنة. وذلك لأن الإنسان مركبٌ من جسدٍ مدركٍ بالبصر، ومن روحٍ ونفسٍ مدركٍ بالبصيرة. ولكل واحدٍ منهما هيئةً وصورةً: إما قبيحةً، وإما جميلةً.

فالنفس المدركة بالبصيرة أعظمُ قدرًا من الجسد المدرك بالبصر، ولذلك عظم الله أمره بإضافته إليه، إذ قال تعالى: {إني خالقٌ بشرًا من طين، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين} فنبه على أن الجسد منسوبٌ إلى الطين، والروح إلى رب العالمين، والمراد بالروح والنفس في هذا المقام واحدٌ".



ثانياً- موضوع علم الأخلاق:

يبحث علم الأخلاق في الأحكام القيمية المتعلقة بالأعمال التي توصف بالخير أو الشر، أو توصف بالحسن أو القبح، وهذا ما يميز الأخلاق عن الغرائز والدوافع؛ لأن الغرائز والدوافع هي الحاجات التي فطر الله الإنسان عليها كحاجته للأكل والشرب والنكاح والنوم، وهي أشياء لا تستوجب لصاحبها مدحاً ولا ذمّاً، ولا ثواباً ولا عقاباً؛ فإن مُدح الإنسان أو ذم على شيء من ذلك، كان المقصود ليس نفس الفعل، وإنما طريقة صاحبه في تلبية تلك الحاجة، أو إشباع تلك الرغبة. فمن يأكل لا يُمدح ولا يُذم على نفس فعل الأكل، وإنما يُمدح على طريقته في الأكل فإذا أكل مما يليه وبهدوءٍ، ومضغ الطعام جيداً، وبدأ باسم الله، وانتهى بحمد الله، حُمد على فعله هذا. وإذا أكل بشراهة، وأدخل اللقمة على اللقمة، وجالت يده في القصة؛ ذمّ على فعله ذاك.



ثالثاً- أقسام الخلق:

- يمكن تقسيم الخلق إلى قسمين اثنين باعتبارين مختلفين:
- أولهما باعتبار الفطرة والاكْتساب: وبهذا الاعتبار ينقسم الخلق إلى:
- أخلاق فطرية: جُبلَ الإنسان عليها أي هي هبة ومنحة من الله تعالى، وليس للإنسان أي دور في اكتسابها. ومثال ذلك قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأشج عبد القيس المنذر بن عائذ وكان وافد عبد القيس وقائدهم ورئيسهم - وعبد القيس قبيلة- (إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم، والأناة) فقال: أشيء جُبلتُ عليه، أم شيء حدث لي؟ فقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: (بل شيء جبلت عليه). فقال: الحمد لله الذي جبلني على ما يحبه الله ورسوله". قال النووي: الحلم هو العقل. والأناة هي التثبت وترك العجلة. وسبب قول النبي صلى الله عليه وسلم ذلك له ما جاء في حديث الوفد أنهم لما وصلوا إلى المدينة بادروا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأقام الأشج عند رحالهم فجمعها وعقل ناقته ولبس أحسن ثيابه ثم أقبل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقربه النبي صلى الله عليه وسلم وأجلسه إلى جانبه.

• أخلاق مكتسبة: يسعى الإنسان في تحصيلها بالتدريب والممارسة العملية، ومن خلال مجاهدته لنفسه. ومنه قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما في الصحيح: (العلم بالتعلم) وقوله: "وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَصْبِرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ".

ثانيهما باعتبار القبول وعدمه شرعاً: وبهذا الاعتبار ينقسم الخلق إلى:

١ - خلق محمود: وهو الأدب والفضيلة، وتنتج عنه أقوال وأفعال جميلة عقلاً وشرعاً.

٢ - خلق مذموم: وهو سوء الأدب والرذيلة، وتنتج عنه أقوال وأفعال قبيحة عقلاً وشرعاً.

ولقد جاء النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى فضائل الأخلاق، حتى تكاد تكون هي الغاية الرئيسة من بعثته صلى الله عليه وسلم ويقول في ذلك: "إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق". وفي حديث آخر قال أسامة بن شريك: كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم كأنما على رؤوسنا الطير، ما يتكلم منا متكلم، إذ جاءه أناس فقالوا: من أحب عباد الله تعالى؟ قال: "أحسنهم خلقاً"

ويُعدُّ حسن الخلق من أكثر الوسائل وأفضلها إيصالاً للمرء إلى الفوز بمحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم والظفر بقربه يوم القيامة. يقول عليه الصلاة والسلام: "إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحسنكم أخلاقاً".



رابعاً: مكانة الأخلاق في الإسلام

يقسم كثير من الباحثين المعاصرين ما جاء به الإسلام من تشريعات وأحكام إلى شعب أربعة هي: عقائد، وعبادات، ومعاملات، وأخلاق. وربما قسمها بعضهم إلى ثلاث شعب فدمجوا بين العبادات والمعاملات، فقالوا: عقيدة، وشريعة، وأخلاق. وهذا التقسيم إنما يصح بالنظر إلى الجهة الغالبة في تلك القضايا والمسائل التي تناولتها نصوص الشرع، وإلا فعند التأمل وإنعام النظر نجد أن هذه الشعب الثلاث أو الأربع لا تنفك عن بعضها، وأنها متداخلة متعاضة كالبنيان يشد بعضها بعضاً. فالأخلاق التي يرد ذكرها في آخر الشعب لا تنفك عن العقيدة والعبادات والمعاملات، وهي في نفس درجاتها ومستوياتها من الأهمية والطلب. بل إنها تمثل جوهر رسالة الإسلام ولب شريعته، بكل ما تحمله كلمة الأخلاق من عمق وشمول.

وبيان ذلك من وجوه :



• حث الإسلام على الفضائل وحذر من الرذائل في نصوص لا تحصى من القرآن والسنة، ووصل فيها إلى أعلى درجات الإلزام، ورتب عليها أعظم مراتب الجزاء، ثواباً وعقاباً، في الدنيا والآخرة. فالصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، والكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار. وامرأة دخلت النار في هرة حبستها لا هي أطعمتها، ولا هي دعته تأكل من خشاش الأرض. وبغي دخلت الجنة في كلب سقته. والمرء يبلغ بحسن خلقه درجة الصائم لا يفطر، والقائم لا يفتر. ...

• بلغ من عناية الإسلام بالأخلاق أن الله سبحانه حين أتى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم اختار الثناء عليه من جهة أخلاقه ليُعلمنا أنه لا أبلغ ولا أرفع من هذه الصفة. فقال تعالى: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ}.
• جعل الرسول صلى الله عليه وسلم الغاية والهدف من رسالته إتمام البناء الأخلاقي الذي بدأه من سبقه من الأنبياء والمرسلين، فقال فيما يرويه أبو هريرة رضي الله عنه: (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق).



• في باب العقائد نجد أن الإسلام يضيف على التوحيد صبغة خُلُقِيَّة، فيعتبره من باب "العدل" وهو فضيلة خلقية، كما يعتبر الشرك من باب "الظلم" وهو رذيلة خلقية، فيقول سبحانه: {إن الشرك لظلم عظيم} وذلك لأنه وضع للعبادة في غير موضعها، وتوجه بها إلى من لا يستحقها. بل اعتبر القرآن الكريم الكفر بكل أنواعه ظلماً، فقال تعالى: {والكافرون هم الظالمون}.

• والعبادات الإسلامية الكبرى ذات أهداف أخلاقية جلية منصوص عليها في كتاب الله: فالصلاة وهي العبادة الأهم في حياة المسلم، لها وظيفة سامية في تكوين الوازع الذاتي، وتربية الضمير الديني على الابتعاد عن الرذائل. قال تعالى: {وأقم الصلاة، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر} وهي كذلك تعين المسلم على مواجهة متاعب الحياة. قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة}.

• والزكاة وهي العبادة التي تلي الصلاة في الأهمية، وسيلة لتطهير وتركية النفس، وهما من الأهمية بمكان في عالم الأخلاق. قال تعالى: {خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها}.

• والصيام إنما يقصد به تدريب النفس على الكف عن شهواتها، وإدخال صاحبها في سلك المتقين، وهي جماع الأخلاق الإسلامية. قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون}



• والحج تدريب للمسلم على التطهر والتجرد والترفع عن زخارف الحياة، وضبط الجوارح. قال تعالى: {الحج أشهر معلومات، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج}.

• وفي مجال المال والاقتصاد كان للأخلاق حضورها سواءً في ميدان الإنتاج أم التداول أم التوزيع أم الاستهلاك.

• ففي مجال الإنتاج يجب أن تكون السلعة المنتجة نافعة مفيدة، وأما ما كان ضاراً بالناس أو مؤذياً لهم فلا يجوز إنتاجه مهما كان سيجلب لصاحبه من أرباح مادية. قال تعالى: {يسألونك عن الخمر والميسر، قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما}.

• وفي مجال التبادل يحرم الإسلام الاحتكار والغش وكتمان العيب، وإنفاق السلعة بالحلف الكاذب، واستغلال حاجة الآخرين أو استغلال بساطتهم أو طيشهم لخداعهم ففي الحديث الصحيح: "لا يحتكر إلا خاطئ" أي آثم. وفيه أيضاً: "من غش فليس منا". وفيه: "الحلف الكاذب منفقة للسلعة ممحقة للبركة. والتملك، لا يجوز للمسلم أن يملك ثروة من طريق خبيث، ولا يحل له أن يأخذ ما ليس له بحق لا بالعدوان ولا بالحيلة. كما لا يحل للمسلم الملك بطريق خبيث، لا يحل له تنمية ملكه بطريق خبيث كذلك لهذا حرم الله الربا والميسر، وأكل أموال الناس بالباطل، والظلم بكل صورته، والضرر والضرار بكل ألوانه.



• وفي مجال التوزيع أمر بالعدل بين الأولاد في العطية من الوالدين، كما وضع نظاماً دقيقاً في توزيع الميراث، والصدقات المفروضة، والغنائم والفيء والخراج والجزية وعطايا بيت المال. فقال صلى الله عليه وسلم: (اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم)

• وفي مجال الاستهلاك والإنفاق أمر الإسلام بالاعتدال والتوسط، والابتعاد عن الترف، والتبذير والإسراف والتقتير. قال تعالى: {ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتتعد ملوماً محسوراً}. وقال أيضاً: {وكلوا واشربوا ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين}. ومن هذا الباب تحريمه لاستعمال أواني الذهب والفضة مطلقاً، وكذا تحريمه لبس الذهب والحريز على الرجال.

• وفي مجال السياسة ربط الإسلام السياسة بالأخلاق، فرفض كل الأساليب القذرة للوصول إلى الغايات مهما كانت تلك الغايات نبيلة، ورفض مبدأ "الغاية تبرر الوسيلة" وجعله سياسته مبنية على الصدق والرحمة والعدل والإنصاف والمساواة بين الجميع في الحقوق والواجبات والعقوبات، وفرض احترام الاتفاقات، والوفاء بالعهود. قال تعالى: {وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء} وقال جل شأنه: {وبعهد الله أوفوا ..} وقال أيضاً {ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى}.



• وفي مجال الحرب لم تنفصل سياسة الإسلام عن الأخلاق، بل بقيت كما في السلم مبنية على العدل والرحمة والصدق والوفاء. قال تعالى: {وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين} ، وقال جل في علاه: {ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام، أن تعتدوا، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، واتقوا الله إن الله شديد العقاب}. وجعل الغاية من الحرب إعلاء كلمة الله، والانتصار للحق والخير. قال تعالى: {الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت، فقاتلوا أولياء الشيطان} وقال جل جلاله: {وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين}. وفي السنة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يوصي أصحابه إذا توجهوا للقتال بقوله: "اغزوا باسم الله، وفي سبيل الله، وقاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا) وكذلك كان الخلفاء الراشدون المهديون من بعده يوصون قوادهم: "ألا يقتلوا شيخا، ولا صبيا، ولا امرأة، وألا يقطعوا شجرا، ولا يهدموا بناءً".

• وهكذا فما من مجال من مجالات الحياة يعيشها المسلم بمعزل عن القيم الأخلاقية والضوابط السلوكية، وما هذا الذي ذكرناه إلا غيض من فيض.



بِسْمِ اللَّهِ
بِحَمْدِ اللَّهِ

